

دير سمعان

ربارات سمعان

في شتى بلاد الشام أديرة كثيرة متفرقة يسمي كل منها دير سمعان :
في ظاهر انطاكية واحد ، وفي اعمال المعرة ار حمص واحد يقال
انه كان بين جبل 'علم والجبل الاعلى ، وفي جبل لبنان واحد ،
وقيل ان بالغوطة واحداً^{٣٩٩} ولكن العمري انكر ان يكون
بالغوطة دير يقال له دير سمعان وقال انه لم يسمع بدمشق لهذا الدير
ذابسة ، ولم يعرف لمكانه في غوطتها خضراء ولا يابسة . ٤٠٠

رقد نبهت هذه الاديار كلها لان واحداً منها نثبه ذكره ونبغ
شانه ، هو دير المعرة او دير حمص ، كان منذ اقدم الازمنة مرعيًا
مزوراً ، وقد انعطف عليه في عصر بني امية جرير بن عطية الشاعر
الاموي ، وكان انعطافه اليه في يوم عيد ، فلما رأى اهله وتقليدهم
فيه انشد في الدير شيئاً من شعره ، ولكن الدير ظل انبه من شعر

(٣٩٩) معجم البلدان ج ٤ ص ١٤٩ - غوطة دمشق ص ٢٣٩

(٤٠٠) مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥١

جرير وأذهب منه في صيت الزمن ، وحتى بعد ان مسته يد العفاء
فخرب بنيانه ونسي مكانه ، فقد ظل الدير عالي الصوت في التاريخ ،
ولم تطفغ على شرفه ومنبهته اخواته الاخرى وان كانت لم تزل باقية
المعالم مخطوطة البناء .

كان من اعظم الشرف الذي أصاب هذا الدير ان عمر بن
عبد العزيز الخليفة الخامس الراشد ، مرض به مرضاً مراً ثم دفن
في أرضه ، وبقي قبره بها معلماً مشهوراً حين امتدت يد التدمير الى
قبور الملوك والخلفاء من اهله ، وظل واضحاً معروفاً على بيّنة من
الطريق حتى أتى الزمان على الخير فمجاه كاه ، وحين طغى الجهل
فشمل هذا الشرق العربي ولف ارجاءه في شملته ، وحين زحفت
جيوش المغيرين فطمست في طريقها المعالم ومحت المنابه ، وتاه القبر
والدير عن عيون أهل الحاضرة والبدو ، ونسوا أنهم كانوا يفقدون
عليه أزماناً طويلة يعظمونه لمدفن عمر به ، من أصابه خير منه في
حياته ومن لم يصبه ٤٠١

وقد وقف به وهو معلم مشهور أحد بني خزاعة يرثي عمر يقول :
أما القبور فانن أوانس بجوار قبرك والديار قبور
جلت رزيتيه فعم مصابه فالناس فيه كلهم مأجور
ردت صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشور
والناس ماتهم عليه واحد في كل دار رنة وزفير
يشي عليه لسان من لم توله خيراً لأنك بالثناء جدير ٤٠٢

(٤٠١) مروج الذهب ج ٢ ص ١١٩

(٤٠٢) الكامل للبرد ج ٢ ص ٢٦٧

مخافة الموت

كانت مخافة الموت قد هيمنت على عمر بن عبد العزيز حتى شملته كله وغمرت قلبه وعقله ، غمرته مذ كان صبياً صغيراً ، فجعل يبكي كلما لاحت له فاعترضته المخافة . وبلغ أمته يوماً أنه بكى ، ولم يكن بكاؤه من شيء أساءه ، وقد جمع القرآن في صدره ، والقرآن يشفي كل صدر من حزنه ، فأرسلت إليه تسأله عن سبب بكائه ، فأرسل إليها يقول : قد ذكرت الموت ! فلما جاءها الرسول بردّه بكت هي أشدّ مما بكى ابنها ، بكت لأنها ذكرت الموت ، وبكت لأن ابنها يفكر وهو صغير في زحفة الزوال ٤٠٣

وجعلت دائرة المخافة تكبر في نفسه وتتسع كلما شب وأينع ، وهي حال لا تسير الى جانب النعمة والشباب في كل الناس ، ولكن الأمرين المختلفين سارا معاً في عمر وهما متقاربان او بمتزجان . بل ان مخافة الموت كانت تفعل وتضخم كلما تمكّن عمر من الدنيا وقبض على متّعه منها ، ولم يعد لفكرة أخرى أن تحل مكانها في موطن قلبه وعقله أو تزيجها لتستقر قليلاً ثم تروح .

ولعل الأحداث التي جرت حوله في الحجاز وهو صبي ، وفي مصر والشام وهو غلام ، كان لها ذلك القهر على نفسه ، فقهر بها أكثر بما قهر بأقوال الفقهاء ونصائح الوعاظ والزهاد الذين أحاطوا به كحلاقة الحديد حين حباً وحين درج وحين شب ثم صار رجلاً . وقد قضى امام عينيه من الخلفاء عبد الملك والوليد وسليمان وواراهم التراب بيده . ومع انه كان يكره الوليد فإن موته كان له عظة

(٤٠٢) ابن الجوزي ص ٩

وكان كثيراً ما يخلو لنفسه ويبكي فيسمع نحيبه بالبكاء وهو يقول :
أبعد الثلاثة الذين أريتهم بيدي : عبد الملك والوليد وسليمان !
وقضى امام عينيه سهل^{٤٠٤} أخوه ومزاحم مولاه وعبد الملك ابنه
ولم تكسر الرزايا طبعه . وأصلب الطباع ينكسر ولو مرة واحدة
وقد يلزمه الانخذال والانكسار . ولكن مصائب المنايا زادت
نفس عمر ايماناً بالموت وحجاً فيه واصراراً على طلبه^{٤٠٤} ،

وقد اقترنت مخافة الموت في نفسه بايمان خالص بقرب البعث
كأنما قنطرة القبر نومة ليلة ثم يفيق على جنة أو نار ، وكما أخبر
الاسلام بالعقاب والمثوبة باتت نفس عمر على رهبة أخرى هي أشد
هولاً من رهبة الموت في نفوس من يفكرون في الموت وحده
دون أن يؤمنوا ببعث أو حساب .

و كذلك صارت للموت رنة صارخة في جوفه وهزة راجفة على
بدنه . فاذا ذكر لفظ الموت على سمعه ، أو حانت منه حومة على
خاطره ارتجفت اعضاؤه واضطربت اوصاله . ولم يكن قد بقي
في زمانه راهب يرهب الموت مثله الا واحد ، هو الحسن البصري
كان يرتجف منه مثل رجفته ، حتى قال يزيد بن حوشب : ما
رأيت اخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز للموت ، كأن النار
لم تخلق الا لها^{٤٠٥}

ولما وطن عمر نفسه للموت قبل ملاقاته سهل عليه ان ينفذ
عنه غبار الشهوة ، ثم لم يلبث حين تدرب على احتمال الشدائد ان
ضحى بذات نفسه لاسعاد الناس وردّ حقوقهم واكثر منها ، فاتخذ

(٤٠٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٣

(٤٠٥) ابن الجوزي ص ١٨٣ ، ١٩١

لنفسه جسراً من السعادة لا يهنا في السير عليه إلا كل صبار. ولقد استولى الايمان عليه مستيقظاً وناثماً يقول له : اثبت على ما انت عليه ! ولم يصبح نزل القبر عنده الا زيارة يخفف الميت بعدها وشيكاً الى داره التي ينزل بها من جنة او نار.

ولما خلع عمر من نفسه حب العاجلة واقتلع الطبع المبذور في طينتها ، وأقصى عنها لذات البدن واستراحاته انقاد لنفسه الناطقة حين قويت وتقبل تأديبها بالدين والآداب وصمم على ان يخط طريقه الى الجنة ، وبينها وبين المرء عقبة مضرسة كثود لا يجوزها الا الضامر المهزول .

ولم يكن شيء يغير من لون عمر ويهدت من قوته ويكسر من عنفوانه اكثر من رؤيته القبور ومروره عليها . وقد حدث ميمون ابن مهران انه خرج معه الى المقبرة ، فلما نظر الى القبور بكى ، ثم أقبل على ميمون فقال له : يا أبا ايوب ، هذه قبور آبائي ممن بني امية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ! اما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلاث واستحكّم فيهم البلى ، واصابت الهوام في أبدانهم مقبلاً ! ثم بكى وأطال ، فلما افاق قال لميمون : انطلق بنا ، فوالله ما أعلم احدا انعم ممن صار الى هذه القبور وقد أمن عذاب الله .

وأصغى عمر بسمعه وقلبه لا قوال الوعاظ في الموت : دخل عليه الرقاشي يوماً فقال له : عظمي ، فقال : يا أمير المؤمنين ، انت اول خليفة يموت ! قال : زدني . قال : ليس بين الجنة والنار منزلة ! وأما هو فقد صار أول وعاظ الموت في زمانه ، وكان كثيراً ما يتمثل

يقول القائل :

من كان حين تَمَسَّ الشمسُ جبهته أو الغبار يخاف الشَّينَ والشُّعْثَا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته فسوف يسكن يوماً ما رانماً جدياً ٤٠٦
ومما وعظ به في خطبة له قوله : أيها الناس ، إنما الدنيا أجل
مخترم وأمل منتقص ، وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس
فيه تعريج ، فرحم الله امرءاً فكر في أمره ونصح لنفسه وراقب
ربه واستقال ذنبه ونور قلبه . أيها الناس ، قد علمتم أن أباكم قد
خرج من الجنة بذنب واحد ، وأن ربكم وعد على التوبة ، فليكن
أحدكم من ذنبه على وجل ، ومن ربه على أمل ٤٠٧ .

ولقد ظل عمر يبكي مخافة الموت حتى صار البكاء طابعاً له فبكى
من غير سبب ٤٠٨ . ولما سئلت فاطمة بنت عبد الملك عن عبادته
قالت : والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا أكثرهم صياماً ،
ولكن والله ما رأيت أخوف لله من عمر ! لقد كان يذكر الله في
فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول :
ليصبحن الناس ولا خليفة لهم ! ٤٠٩

النفوس التواقفة

وكان من خير الناس - ولو في مدة واحدة قد مرت كما يمر
الطيف - أن تصيب مخافة الموت نفساً واحداً منهم يتولى شئونهم ،
من حيث لم ترده المخافة إلا خفة لنجدتهم ، فلم يبطن عن الاجتهاد

(٤٠٦) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٧٥

(٤٠٧) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٣١٧

(٤٠٨) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٨

(٤٠٩) ابن عبد الحكم ص ٤٧

لهم ، ولم تقعهده المهابة عن أن يعمل خيبرهم مع نفسه أو قبلها كما
أقعدت غيره من الزهاد الذين لم تلتق عليهم مسئولية الناس
ورعاية العباد .

وقد خلا الزهاد إلى أنفسهم في خلواتهم للخوف والعبادة . أما
عمر فقد اقتحم ولم يفر كما فر معاوية الثاني حين ولّوه الخلافة
وأدرك أنه ليس صاحب الأمر . ومضى عمر يحمل العبء ويضيف
على كاهله الاثقال حتى لا ينجو ، وكلما انحط عنه واجب تاقت نفسه
إلى واجب .

وهفت نفسه إلى الولاية حتى يكون أقدر على العمل وأمكن
من النفع . فلما كان والياً على المدينة تاقت نفسه إلى الخلافة - ولم
يكن يدري أنها قدرته له - فلما تولاها تاقت نفسه إلى الجنة . ولم
يكن توق أمان باطلة لا يتقدم العمل الصالح بين يديها ، بل عمل
جهده وأنفك اضطباره حتى لم يصر أحداً أولى بها منه ، وعمل للخلافة
حتى لم يبق من يتناول لها غيره ، وعمل للجنة حتى 'ظن' الحساب
أنه قد سقط عنه .

ولم يصدأ خاطر عمر أو يخمّد شعوره معها طال به الشجن ، كما
يبلد شعور الملوك والرؤساء حين يصيرون إلى الملك والرياسة
فيظنون أنهم بلغوا الغاية فيهمكون في ملذاتهم وكأنهم آمنوا
مكر الدنيا جملاً منهم وغروراً ، ولكنه استمر لامعاً متدفق
الحياة تواقاً إلى المعالي عاملاً لها ، وقد أقر هو على توق نفسه ودل
على طموحها حين قال : ان لي نفساً ذواقة تواقه ، كلما ذاقت شيئاً
تاقت إلى ما فوقه ، ولقد رأيتني وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان ثم

تاقت نفسي إلى العلم بالعربية فالشعر فأصبت منه حاجتي ، ثم تاقت نفسي إلى فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها ، و تاقت إلى الامارة فوليتها ، و تاقت إلى الخلافة فأدر كتبها ، فلما ذاقت الخلافة ولم يكن شيء في الدنيا فوقها تاقت نفسي إلى ما عند الله في الآخرة ١٠

بغاء الروح

واستبصر عمر فرأى حياته - وإن انقطعت في الدنيا - لا محالة مفضية إلى وجود سرمدي ، فليست في الموت نهاية المخلوق ، وإنما هي نقلة من حياة إلى حياة - كما صور الاسلام - فهو مخلوق للأبد مصنوع للخلد ، ولكن من دار إلى دار ينتقل . وليس بالجسد يخلد الانسان ، وليس للجسد أن يكرم أكثر من الوقت الذي تنتثر فيه عظامه وينتهك عنها اللحم وتنفك العروق . فالشهود التي يشيدها الناس لقبورهم في الأرض ، والمعالم التي ينصبونها شواهد تدل وتشهد ، لم تكن في رأي عمر إلا وهماً باطلا وظلا حائلا . فليس سوى عام واحد تبقى الجثة ثم يجب ان تحرث الأرض وتسوى لينتفع الناس بالأرض ، وحتى لا يعلق الزهو بالنفوس ويتشبث الناس بالدنيا فيخافوا ان يزولوا .

محبة الارض

وكان عمر - من كثرة ما مثل امامه الموت - كلما نزل أرضاً يظن أن الموت ملاقيه بها ولن يبرح ؛ فكان يود كلما نزل أرضاً فأحبها . أن يلقى بها منيته وأن يُدفن في أرضها . أحب أرض المدينة أول

(٤١٠) شذرات الذهب ج ١ ص ١٢٠ - ابن الجوزي ٦٦ - وفيات

الأعيان ج ٢ ص ٦١

ما أحب وظالما عاوده الشوق اليها وحنّ لها ، وودّ لو رجع لئلا
 يكون بمن نفت المدينة ، ثم ألف الاسكندرية حين زارها وراها
 فأحب لو عاش ثم مات بها ، وقد قالوا إنه قال لزهرة بن معبد أحد
 فضلاء المؤمنين وأحد غزاة إفريقية في البر والبحر : أين تسكن ؟
 فقال زهرة : بالفسطاط ، فقال له عمر : وأين انت عن الطيبة ؟
 قال : وأين الطيبة ؟ قال : الاسكندرية ، فأنتك تجمع فيها دنيا
 وآخرة . انها الطيبة الموطن . والذي نفس عمر بيده لو ددت أن قبري
 يكون بها ! فسكن زهرة الاسكندرية بعد قول عمر له وترك
 سكنى الفسطاط . ٤١١

فلما كان عمر خليفة ومكث في الخلافة سنتين واشهرًا قليلة ،
 ذهب في زورة له إلى الشمال ثم نزل بدير سمعان في جانب قرية
 عرفت بالبقرة من قبلي معرة النعمان في انحراف الى حلب ٤١٢
 نزل به يستجم من علة تحركت به كأنها علة سمّ قاتل يدب خفياً
 وهو سريع ، ولم يلبث الداء ان فشا فيه ، فظل يشكو عشرين
 يوماً ثم الحت عليه الشكوى تسعة ايام ٤١٣

ومنذ بدائه العلة في خناصرة وأيقن بالموت نهض يخطب بها
 ويقول : واعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه وباع نافداً
 بباقي ، وقليلًا بكثير ، وخوفاً بأمان . . . فلما انتهى من خطبته رفع
 طرف ردائه فبكى حتى شهق وأبكى الناس حوله ثم نزل فكانت

(٤١١) رياض النفوس ج ١ ص ٩٠

(٤١٢) مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥١

(٤١٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٤٠

أيها ٤١٤ ، ولم يُرَ بعدها على تلك الأعواد حتى قبضه الله ٤١٥ ، ثم أحسن أنه في حاجة ليستجتم فأسرع الى دير سمعان .

وعرف عمر ان السّم من يد خادم دسّته يزيد بن عبد الملك ، أوقيل ، واتي بالخادم فأعترف بأنه وضع له سمّاً على طرف إبهامه ودسّته في الماء وسقاه له فتركه عمر . ومن غريب أمره أنه كان يكره الخوارج ولكنه صار كالخارجي في حرصه على الموت ، وكانت الرجل منهم اذا طعن قنّع فرسه ليسبح في الرميح وينتهي الى طاعنه وهو يقول : وعجلت إليك ربّ لترضى !

وقالوا لعمر : لو تداويت ! فقال : لو كان دوائيّ في مسح أذني ما مسحتها ! نعم المذهب اليه ربي !

وكان عمر بعث من قبل الى عبد الله بن أبي زكريا ، وكان رجلاً من صلحاء اهل الشام فقال له : يا بن أبي زكريا ، هل تدري لم بعثتُ اليك ؟ قال : لا . فقال : لأمرٍ لست ذاكره لك حتى تحلف لي . قال : لا تسألني شيئاً الا فعلته ! فقال عمر : فاحلف لي ، فلما حلف له قال : ادع الله أن يميتني .

قال الرجل : بئس الواقد أنا للمسلمين ! وأنا إذن عدو لأمة محمد ! فقال عمر : هاه ! قد حلفت لي ، فلم يجد الرجل الصالح ابن أبي زكريا بداً من الوفاء فدعا لعمر بالموت ! ولم يلبث أن عز عليه ما فعل فرفع يديه داعياً يقول : اللهم لا تقبني بعده ، وبينما هو يدعو كذلك اذ أقبل صبي صغير لعمر ، فقال لابن أبي زكريا : وهذا

(٤١٤) الطبري ج ٥ ص ٣٢٣

(٤١٥) الاغانى ج ٨ ص ١٥٢

فأني أحبه ، فدعا له ابن أبي زكريا . ثم لم يلبث حين مات عمر ان
مات ابن زكريا ثم مات الصبي ٤١٦

و حين وثق عمر من انه ميت في مكانه لا محالة نام لليلة ولنهي
الخطير في قميص من شعر مايلي جسده ، يمتد الى ركبتيه ، أما كآه
فقد بلغا مرفقيه ٤١٧ واشير عليه أن يخلع قميصه ذاك فأبى ، وجعل
يتلقى به عرقه وجهده ، ورفض ان يؤتى له بشيا ب أخرى من بيت
المال ، وهي مرة فريدة في حياته امتنع فيها عمر أن يخلع قميصا لم يغسل
لأنه لم يجد له من بقاء ، وإنما يُبقي على جديد الدنيا من يأمل فيها
البقاء .

ولما ثقلت به العلة دخل عليه صاحب الدير يطرفه بهدية من
فاكهة بما أثمر شجر الدير ، فتقبل عمر الفاكهة بقبول حسن ، وأمر
له بالثمن ، فأبى الديراني ، فلم يزل به عمر حتى رضي وقبل ثمن
الفاكهة . ثم قال عمر لصاحب الدير : اني ميت من مرضي هذا !
فحزن الديراني ، وبكى لرقه في قلبه ونبل في نفسه وقرب في
مودته ثم قال له عمر : قد بلغني أنك تملك هذه الارض - وأشار
له نحو أرض الدير - فبعني موضع قبوري من أرضك لعام واحد ،
فاذا حال الحول فانبش الارض وازرعها وانتفع بها . وتم البيع
على ثمن لم يدور بعد كم كان ، أكان دينارين أم كان أربعين ٤١٨

(٤١٦) ابن عبد الحكم ص ١١٥

(٤١٧) ابن الجوزي ص ١٤٨

(٤١٨) اختلفت الروايات في ثمن قبر عمر اختلافاً كبيراً ولكنه انحصرين

دينارين وخمسين - مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥٣ - معجم البلدان ج ٤

ص ١٤٨

ان الاسلام نظر الى ما بعد الموت ، وجعل الثواب والعقاب في الخلد بعد ، ورفع الاسلام ابصار الناس وافكارهم عن تقديس الجسد حياً وميتاً ، ولذلك نهى عن زيارة القبور الا للعظة ، فالركون الى القبور وتكريم اجساد الموتى يقف القلوب دائماً عند حد الحياة الدنيا . وقد ابصر عمر ذلك فطلب الى الديراني ان يحرث الارض بعد عام .

المال الموروث

واسرع الى عمر فيمن أسرع اليه حين علموا بمرضه عدل له ، فقال له عمر : نزل بي الموت ولم أتأهب له ، اللهم انك تعلم أنه لم يسنح لي أمران لك في احدهما رضا ولي في الآخر هوى الا آثرت رضاك على هواي فاغفر لي ٤١٩ . ثم جاء مسلمة بن عبد الملك - والصرعة تهلكه فيظن من يراه انه لا يفيق - وافاق عمر فرأى مسلمة فأوصاه ان يحضر موته وأن يلي غسله وأن يمشي معه الى قبره وأن يكون بمن يلي ادخاله في لحده . ورأى مسلمة الفرصة قد سنحت ليفرض عمر شيئاً لأولاده فقال : يا امير المؤمنين ، انك أفرغت أفواه ولدك من هذا المال وتركتهم عيلة لا شيء لهم ، فلو وصيت بهم اليّ والى نظرائك من أهل بيتك ! فسكت عمر : فقال مسلمة : ألا توصي يا امير المؤمنين !

قال عمر : فيم أوصي ؟ فوالله إن لي من مال ! فقال مسلمة : هذه مائة ألف فمر فيها بما أحببت ! قال عمر : أو تقبل يا مسلمة ؟ قال : نعم ، فقال عمر : تَوَدَّ عَلَى من أخذت منه ظمأ ! ثم غاب

(٤١٩) البيان والتبيين ج ٣ ص ٧٣

عمر غيبته فبكى مسلمة وقال : يرحمك الله ، لقد ألتنا منا قلوباً قاسية وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً ٤٢٠ .

ولم يكن عمر ممن يرضى أن يورث أبناءه مالاً فإن الولد الصالح لا حاجة له في مال موروث ، والولد الطالح يفسده مال أهله حين يرثه . فلما أفاق عمر مرة ثانية قال : اسندوني ، ثم قال لمسلمة : أباالفقر تخونني يا مسلمة ؟ أما قولك اني أفرغت أفواه ولدي من هذا المال ، فوالله اني ما منعتهم حقاً هو لهم . واما قولك لو أوصيت بهم فان ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وان بنيّ احد رجلين : اما رجل يتقي الله فسيجعل الله له رزقاً واما رجل مكبّ على المعاصي فاني لم أكن لأقويه على معصية الله . وكان اولاد عمر قد اسرعوا الى الديور فيمن اسرع ، كانوا احد عشر بقوا من أربعة عشر ، فدعاهم فنظر اليهم ثم قال : بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم ! أي بنيّ ، لقد تركتكم وتركت لكم خيراً كثيراً ، لا تمثرون باحد من المسلمين وأهل ذمتهم الا رأوا لكم حقاً . يا بنيّ ، ان أباكم مثل بين امرين : اما ان تستغنوا ويدخل ابوكم النار ، او تفتقروا ويدخل ابوكم الجنة ، فكان ان تفتقروا ويدخل الجنة أحب إليه ! قوموا يعصمكم الله ! قوموا يرزقكم الله ٤٢١ .

ودخل رجاء بن حيوة على عمر فقال له : يا أمير المؤمنين ، اكتب الي يزيد بن عبد الملك توصيه وتخوفه فقال : والله اني لأعلم أنه من ولد مروان ! فقال له رجاء : يكون حجة عليه وعذراً

(٤٢٠) الكامل للبردج ١ ص ١٤٠

(٤٢١) ابن عبد الحكم ص ١١٧ ، ١٢٧

لك عند الله ! فامر كاتبه أن يكتب اليه : أما بعد يا يزيد فإتق
الصرعة عند العفلة فلا تُقال العثرة ولا يُقدر على الرجعة وتترك ما
تترك لمن لا يحمدك ، وتنقلب الى من لا يعذرك والسلام . وكانت
صبيحة في واد .

ثم اشتدت الصرعة بعمر وجاء الهول ، ولم يبق حول بريرة الا
فاطمة بنت عبد الملك وزوجه ومسلمة أخوها ووصيفه يقال له مرثد
فسهر وسهر وا معه ثم تفرقوا عنه حين طلع النهار . قالت فاطمة :
اشتد عزلته ليلة فسهر وسهرنا معه ، فلما أصبحنا أمرتُ وصيفاً له
يقال له مرثد ، فقلت له : يا مرثد ، كن عند أمير المؤمنين ، فإن
كانت له حاجة كنتُ قريباً منه ، ثم انطلقنا فضربنا برؤوسنا لطول
سهرنا ، فلما انتفخ النهار استيقظت فتوجهتُ إليه فوجدت مرثداً
خارجاً من البيت نائماً فايقظته فقلت : يا مرثد ، ما اخرجك ؟
قال : هو اخرجني ! قال : يا مرثد ، اخرج عني فوالله اني لأرى
خلقاً ما يزدادون إلا كثرة ، ما هم بانس ولا جن ، فخرجت
فسمعته يقول : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في
الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .

فدخلت فاطمة مسرعة فوجدته قد وجد نفسه وأغمض عينيه
وإنه لميت . رحمه الله ٤٢٢ .

عن الأربعة

كان عمر يستعجل الموت ، ولقد أحسن حين دنا من الأربعين
- وكانت اعمار بني امية في معظمها قصاراً - انه قد بلغ حدته ،

(٤٢٢) الطبري ج ٥ ص ٤٢٤

وكان عمر قد جعل هذه السنّ غاية لم يَعُدْ بعدها عذر لانسان ان يسرف ويعصي ربه ، فكان يقول : تمت حجة الله على ابن الاربعين . ثم مات لها او حولها بقليل من الشهور والايام بعد ان أبلى عذره واستقال ذنبه . ابن اربعين او اقل منها ، ولكنّ الناس باتوا يظنون زهده اشق على ابن السبعين او الثمانين ، وعمله أشق على ملكٍ عمّرَ في ملكه عهداً طويلاً ٤٢٣

ومات عمر في أخريات رجب لسنة إحدى ومائة ، وثمان أو ست او عشر بقين من الشهر ، وكان موته يوم الجمعة ، وتقدم للصلاة عليه الخليفة من بعده يزيد بن عبد الملك . وكان يزيد متهماً في سمّه ، قالوا انه دسّ الى خادم يخدم عمر ، فوضع الخادم السمّ على ظفر ابهامه ، فلما استسقى عمر غمس ابهامه في الماء ثم سقاه فرض مرضه الذي مات فيه ، وكان موته من السم من قريب ٤٢٤ ولو لم يعجل السمّ على عمر لعجلت عليه الخفاة ، فقد كان مرضه يُجلّثه من كثرة الخوف من الله . كانت اقوى سبباً من السمّ الذي ادعوا أنه استقاه مع الماء فمات به ٤٢٥ بعد خلافة دامت سنتين وخمسة اشهر أو ستة ومعهن أيام كما كانت خلافة أبي بكر الصديق . ٤٢٦ سنتان وقابل من الأشهر ظنّها الناس اعواماً طويلة لكثرة ما أصابهم من خير ووفرة ما عمّتهم من عدل وانصاف .

(٤٢٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٣٢ - تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٤

(٤٢٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٢ ، ٤٣٩

(٤٢٥) طبقات الشعرا ج ١ ص ٣٣

(٤٢٦) الصفوة ج ٢ ص ٧٢ - شذرات الذهب ج ١ ص ١١٩

وعاطفة الخفاة متى صارت مألوفة فانها تصبح قادرة على احداث انقلاب نفسي ومرض حقيقي ، فاذا انضم الى الخوف تفكير لا ينقطع وشعور بالمسئولية والعاقبة فان الموت قادم لا محالة مسرعاً على رجل لم يبلغ من السن غير قليل .

نبش القبور

ودفن عمر في مكانه الذي اشتراه من أرض الدير ، ٤٢٧ ووقف عليه مسلمة بن عبد الملك يقول : اما والله ما أمنت الرق حتى رأيت هذا القبر ! و امر الحول على دفنه ، وصار لصاحب الدير أن ينش القبر ويزرع الارض . ولكنه لم ينشه ولم ينتفع بها ، بل ابقى عليه وصانه وجعله معلماً على الطريق يفد اليه الناس فيدعون له ويترحمون عليه ويبلون ترابه ، وكان الناس فيه جميعاً كما قال جرير :

لو كنت أملك والاقدار غالبه تأتي رواحاً وتبيدتاً وتبتكر
رددت عن عمر الخيرات مصرعه بدير سيمان لكن يغلب القدر
وأحب الناس عمر لأنه تعفف عما في أيديهم وقل رزؤه ، وكما
ازداد الزاهد تمنعاً ازداد للناس في حبه حاجة ، فاذا مات اتخذوا
قبوه مصلى . واذا عرّض لهم من يأكل الكثير ويتدّرع في اللقمة
مقتوه ونبذوه وكرهوا قربه واستسرفوا أدبه . ولعله ما هجر
الناس زيارة مقابر الملوك والحلفاء ولهجو ازيارة قبر عمر بن عبدالعزيز .
قال هشام بن الغاز : نزلنا منزلاً مرجعنا من دابق ، فلما ارتحلنا
مضى مكحول ولم يعلمنا أين ذهب ، فسرنا كثيراً حتى رأيناها فقلنا : أين

(٤٢٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

ذهبت ؟ فقال : أتيت قبر عمر بن عبد العزيز وهو على خمسة أميال
من المنزل فدعوت له ، ثم قال : لو حلفت ما استثنيت ، ما كان
في زمانه أخوف لله عز وجل من عمر ، ولو حلفت ما استثنيت ،
ما كان في زمانه أزهد في الدنيا من عمر ٤٢٨ !



لمّا مَرَّ بِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَوْصَى أَنْ يُدْفَنَ بِالْمَقَطَمِ مِنْ نَاحِيَةِ
يُقَالُ لَهَا الْفَجَّ ، وَكَانَ هَذَا الْمَكَانَ طَرِيقَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَى الْحِجَازِ
وَأَحَبُّ أَنْ يُدْعَوْ لَهُ كُلٌّ مِنْ مَرَّ بِهِ ! ٤٢٩

أما عمر فتوارى عن الطريق وصار أبعده القبور عن مزدحم
الأرض وملتقى الناس . وكان جم التواضع ، إذ آثر أن يكون
في أرض دير ، ولكنه كان متعاضداً إذ دلّ على ما بين المسلمين
وأهل ذمتهم من مودة ، وعلى ما كان بين عمر نفسه وبين أهل الذمة
من صفاء ، وهو المتهم ظلماً بالشدّة فيهم والقسوة عليهم .

وظل القبر حيناً طويلاً في أرض الدير يعلو بتواضعه على القبور
المعلّمة ، ويقصده الناس حين ينكرونها ، حتى قامت الدولة العباسية
على سنان منشبة في اكباد الأمويين الأحياء ، ثم غلا النار الجامح
غليانه فخرج بأهله عن الوقار ، وثار أهل الشام مع الثائرين لما ملّوا
امية فنبشوا مع العباسيين قبور الأموات ، وأخرجوا الجثث
يجلدونها بالسياط ويحرقونها بالنار .

وأمعن العباسيون بعد مذبحّة الأمويين في « أبي فطرس »

(٤٢٨) ابن الجوزي ص ٢٩

(٤٢٩) فتوح مصر واخبارها ص ٢٥٣

بفلسطين في نحو آثار الموتى بدمشق وقنسرين ودابق والرصافة ،
وأخرجوا جثة سليمان بن عبد الملك من قبره بدابق وجلدوها ،
وجثة هشام من مدفنه بالرصافة - وكانت جثته لم تزل متمسكة -
فأحرقوها وذرروا رمادها .

ولكن قبر عمر بن عبد العزيز سلم من البطش ، وجاوزته حمى
الغضب ورحضاًؤه فلم تمتد إليه يد بالأذى . وضاعت معالم القبور
المشهورة ، وبقي القبر المتواضع مُعالمًا مشهورًا . وكان زهد عمر
وورعه وعدله منجاة لعظامه ومأمنًا لآثاره ٤٢٩ . وظل القبر سنين
طوالا يحج إليه المقيمون والوافدون ، ثم دهم الشرق ما دهمه فذهب
الدير وضاعت معالم القبر وانقطع عنه الناس ، وبقيت كل أديار
سبعان تعرف إلا دير سبعان المعروف .

عظة المنصور

قال الخليفة المنصور لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر:
عظني ، قال : بما رأيت أو بما سمعت ؟ قال المنصور : بما رأيت ،
فقال : مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلف أحد عشر ابنا ،
وبلغت تركته سبعة عشر دينارًا ، كفن بخمسة واشتري له موضع
قبره بدينارين ، وقسم الباقي على ولده ، فأصاب كل ذكر منهم
تسعة عشر درهما .

ومات هشام بن عبد الملك ، فقسمت تركته على أولاده ، فأصاب كل
واحد منهم ألب ألف ، ورأيت رجلاً من ولد عمر قد حمل في يوم

(٤٢٩) تاريخ العرب الطول ص ٢٨٩ ، ٣٥٧

واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من
ولد هشام يتصدق عليه الناس ٤٣٠ .

عظمة المرء

ولقد ظلت الدولة الأموية تملك الخلافة مائة عام أو نحوها ،
وهذه المدة اقصى مدة تعيشها دولة يتردى أمرؤها في حماة الانحراف ،
وكان خليفاً بهذه الدولة - في المظهر - ان تعيش أطول بما عاشت
بسبب الفتوح الضخمة التي تمت في عهدها ، ولكن الفتوح لم تكن
مقياساً صحيحاً لها لتبقى أو تزول ، فانما كانت امتداداً للدفعة
القوية الجبارة التي دفعتها غزوات النبي وسراياه ، ثم لما فعل أبو بكر
وعمر من بعد .

أما المقياس الحق لبني أمية فكانت سياستهم في داخل البلاد
المفتوحة ووطأتهم على العراق والحجاز خاصة ، وعلى أصحاب النبي
وأهل بيته على الأخص الأخص . ومن المؤسف أن فتوحهم لم تقم
شفيعاً لهم في مسلكهم وسياستهم ، فانهارت الدولة برغم ما أصابها
في بعض الاحيان من نوبات للخير والعدالة . الا أن النوبات لم
تطرد ولم تمتد ، وانما كانت تفد مع مزاج صاحبها وتزول بزواله ،
ثم ترجع الامور الى سفافها . لذلك ولغيره لم تظل الدولة غير
مائة عام أو نحوها ، وهي اقصى المدة لدولة يتردى أمرؤها في
حماة الانحراف عن جادة الصواب .

ولم تفقد الامة العربية في دولة بني أمية صلاحها وتقواها ولا

علمها وفقهها ولا جهدها وكسبها ، وان ظل اكثر الفقهاء والعلماء
بعزل عن الخلفاء ومنأى . وبينما كانت قصور الامراء تنحل وتسلم
أقدامها للزوال كانت الأمة تعمل على أن تعيش وتبقى في ظل دينها
الجديد . ولم يسلم من البيت الاموي غير اولئك الافراد الذين
سلكوا مسالك الزهاد وانخرطوا في نظام الفقهاء والعلماء فأبقوا على
أنفسهم وأولادهم مع الأمة الحية الصالحة التي كانت تحارب وتستشهد
وتتفقه وتعلم حتى تبقى على كيانها أن ينحل وعلى ملكها المكسوب
أن يزول .

مراجع الكتاب

•

- | | | |
|---|-------------------------------------|----|
| الأغاني | لأبي الفرج | ١ |
| الاحاد في الاسلام | لعبد الرحمن بدوي | ٢ |
| البيان والتبيين | للجاحظ | ٣ |
| تاريخ آداب العرب | لرافعي | ٤ |
| داريا | للقاضي الخولاني تحقيق سعيد الافغاني | ٥ |
| « الشعوب الاسلامية لبوكاهان ترجمة منير البعلبكي
ونبيه فارس | | ٦ |
| تاريخ الطبري | | ٧ |
| « العرب مطول لفيليب حتي (ترجمة) | | ٨ |
| « مدينة دمشق لابن عساكر تحقيق صلاح المنجد | | ٩ |
| « اليعقوبي | | ١٠ |
| تذكرة الحفاظ | للذهبي | ١١ |
| التواتر اليوناني في الحضارة الاسلامية | لعبد الرحمن بدوي | ١٢ |
| التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع | لأبي الحسين الملقب الشافعي | ١٣ |

للشعالي	ثمار القلوب	١٤
لابن قيم الجوزية	جلاء الأفهام	١٥
لمسكويه تحقيق عبدالرحمن بدوي	الحكمة الخالدة	١٦
	حماة الاسلام	١٧
للدميمري	حياة الحيوان	١٨
لابن آدم القرشي	الخراج	١٩
لأبي يوسف	الخراج	٢٠
لكرد علي	خطط الشام	٢١
لسير توماس أرنولد (ترجمة)	الدعوة الى الاسلام	٢٢
لأبي بكر المالكي	رياض النفوس	٢٣
للمرزوقي الاصفهاني	الأزمة والأمكنة	٢٤
للحصري	زهر الآداب	٢٥
للمؤلف	زين العابدين	٢٦
لابن الجوزي وأشرنا إليه بابن الجوزي	سيرة عمر بن عبدالعزيز	٢٧
لابن عبد الحكم	سيرة عمر بن عبدالعزيز	٢٨
بابن عبد الحكم	» »	
لابن العباد	شذرات الذهب	٢٩
للقلقشندي	صبح الأعشى	٣٠
لابن الجوزي	صفة الصفة	٣١
لابن سعد	الطبقات	٣٢
للسعرائي	الطبقات الكبرى	٣٣

طريقى الهجرتين	لابن قيم الجوزية	٣٤
ظهر الاسلام	لأحمد أمين	٣٥
العقد الفريد	لابن عبد ربه	٣٦
عمر بن عبد العزيز	لأحمد صفوت (سلسلة اقرأ)	٣٧
عيون الاخبار	للدينوري	٣٨
غوطة دمشق	لكرد علي	٣٩
فاطمة الزهراء والفاطميون	لعباس العقاد (سلسلة دار الهلال)	٤٠
فتوح مصر وأخبارها	لابن عبد الحكم (طبعة ليدن)	٤١
فجر الاسلام	لاحمد امين	٤٢
الفخري في الآداب السلطانية	لابن الطقطقى	٤٣
قصص العرب	لحامد المرلى وصاحبه	٤٤
القومية المصرية الاسلامية	لابراهيم جمعة	٤٥
الكامل	لابن الاثير وأشرنا إليه بابن الاثير	٤٦
الكامل	للهمود	٤٧
محاسن السلوك	لمحمد غنيم	٤٨
محاضرات تاريخ الامم الاسلامية	للخضري	٤٩
المرشد في الدين الاسلامي	لجماعة من الاساتذة المصريين	٥٠
مروج الذهب	للمسعودي	٥١
مسالك الابصار	للعمرى	٥٢
المطالعة التوجيهية	لجماعة من الأساتذة المصريين	٥٣
المعارف	لابن قتيبة	٥٤
معالم الموسيقى العربية	لنسيب الاختيار	٥٥

معجم البلدان	لياقوت	٥٦
الموافقات في أصول الشريعة	للشاطبي	٥٧
الموشح	للمرزباني	٥٨
النجوم الزاهرة	لأبي المحاسن	٥٩
الانصاف	للباقلاني	٦٠
وفيات الأعيان	لابن خلكان	٦١

حمانا - لبنان

في يوم الثلاثاء ٥ من صفر سنة ١٣٧٣ ،
الموافق ١٣ من تشرين اول - اكتوبر - سنة ١٩٥٣

تصويب

السطر	الصفحة	الصواب	الخطأ
١٦	٩	فتاة بني هلال	بني هلال
٥	٦٧	ورأى عمر نفسه	عمر نفسه
١٣	٩٧	ما علمنا	ما علم
١٣	٩٩	تركها	تركهن
٢٣	١٠٠	بعض	من
٥	١٠٢	إزه	أزه
١٥	١٠٢	مورود	ومورود
١٩	١١١	يريد إن	يريد أن
١٥	١٢٦	الشاعر أو	الشاعر : أو
٢٢	١٢٧	النفوس	نوس
٢١	١٣٨	فاكتب	فأكتب
١	١٦٥	فعله ورأوا أن	فعله أن
٤	١٧٢	ابن مسجح	ابن مسجح
٦	١٧٢	المغني	المتي
١٢	١٧٨	حالم	حالم
٢	٢٢٩	تمسّ	عسّ
١٣	٢٣٠	وأنفد	وأنفد
٢	٢٣١	فتزوجتها	فتزوجها

الفهرس

١ الباب الاول : نبعة السهام ٦

عمر بن الخطاب ٦ أولاد عمر ٨ عاصم بن عمر ٨ فتاة
بني هلال ٩ ام عاصم ١١ عبد العزيز بن مروان ١٢ عمر
ابن عبد العزيز ١٤ نشأة عمر ١٦ رؤيا صادقة ١٩ الجوهر
السليم ٢٣ علم عمر ٢٤ فاطمة بنت عبد الملك ٢٦ القطائع
٢٧ قطائع عمر ٣٢ إمرة خنصرة ٣٣

٢ الباب الثاني : ولاية المدينة ٣٤

بداية الفطنة ٣٤ مشورة الفقهاء ٣٥ ميول عمر ٣٩
غضبة علي فقيه ٤٢ الأمير الأمير ٤٣ مسجد المدينة ٤٣
اصلاحات شتى ٤٥ زيارة الوليد ٤٦ سعيد بن المسيب
٤٧ خطبة الوليد ٥٠ مفترق الطريق ٥٢ عزل عمر ٥٧
عهد جديد ٥٨

٣ الباب الثالث : منزل السويداء ٦٠

رحلة ليل ٦٠ الفقه الأصغر ٦٣ الظلم الشامل ٦٤ اول

التوبة ٦٦ الى دمشق ٧٠ عمر والوليد ٧١ عمر
وسليمان ٧٥ مرضة سليمان ٨٢ رجاء بن حيوة ٨٤

٤ الباب الرابع : يوم عصب ٨٦

موت سليمان ٨٦ بيعة عمر ٨٨ ثلاثة كتب ٩١ هبوب
العاصفة ٩٣ مطامع النساء ٩٥ بيت سليمان ٩٧ أول
العدالة ٩٨ فقه جديد ٩٩ أمراء بني أمية ١٠٠ ارباح
التجار ١١٢ عزل الولاة ١١٣ مسلمة بن عبد الملك ١١٤
مشية الرهبان ١١٥ حنين عمر ١١٦

٥ الباب الخامس : طريق العدالة ١١٨

المستول الأول ١١٨ عبد الملك بن عمر ١١٩ عزيمية
صادقة ١٢٥ الذوق والكسب ١٢٦ أصحاب عمر ١٢٦
الفقه الأكبر ١٣٤ شروط العامل ١٣٥ القضاة والعمال ١٣٦
بلال بن أبي بردة ١٣٧ صورة العدالة ١٤٠ ما ليس من
العدل ١٤١ تنفيذ الأحكام ١٤١ انواع المحاكم ١٤٥ مراقبة
العمال ١٤٦ الشكاوى ١٤٩ فن جديد ١٤٩ أثر العدالة ١٥١
٦ الباب السادس : سياسة الناس ١٥٥

الزمان الأول ١٥٥ بيت المال ١٥٧ القصد والاسراف
١٦٠ الرفق بالرعية ١٦٢ أهل العراق ١٦٤ أهل المدينة ١٦٦
أهل مكة ١٦٩ أهل الرقة وأهل أيلة ١٦٩ أهل سمرقند
وأذربيجان وخراسان ١٧٠ حلبة السباق ١٧١ درس
قاس ١٧٣ رحمة الضعفاء ١٧٤ الخوارج والحرورية ١٧٦
أهل الذمة ١٧٧ الرفق بالحيوان ١٨٠ الاصلاح ١٨١

مسجد دمشق ١٨٢ حسن البيان ١٨٩

٧ الباب السابع : دعوة الخير ١٩٤

القدرية والعصاة ١٩٤ جند المسلمين ١٩٨ بدعة معاوية ٢٠١
بدعة الناس ٢٠٤ شيعة علي ٢٠٦ قصة فذك ٢١٠ علوم
الدين ٢١٢ علوم الدنيا ٢١٣ العلماء والمعلمون ٢١٤
المعلم ومنهاج الدراسة ٢١٦ الزكاة ٢١٧ الدعوة الى
الاسلام ٢١٩

٨ الباب الثامن : دير سمعان ٢٢٤

ديارات سمعان ٢٢٤ مخافة الموت ٢٢٦ النفس التواقفة
٢٢٩ بقاء الروح ٢٣١ محبة الأرض ٢٣١ المال
الموروث ٢٣٥ سن الأربعين ٢٣٧ نبش القبور ٢٣٩
عظة المنصور ٢٤١ عظة الدهر ٢٤٢

انتهى طبع هذا الكتاب على

مطابع دار الكشاف - بيروت

في الرابع من شهر ربيع الثاني ١٧٧٣ هـ
والعاشر من شهر كانون الاول ١٩٥٣ م